دمعة خالصة من النجف على الرافعي

فقيد البيان الرفيع

للأستاذ حسين مروة

إننا — علم الله — لنشعر بالتياع حزاز فى قرارة النفس ان لم تؤآتنا الفرصة للجهر برأينا فى أدب المغفور له الأستاذ مصطفى صادق الرافعى إلا فى هذه الساعة الرهيبة إذ تفجؤنا أنباء وادى النيل بنعى الرجل راحلا إلى دار الله الباقية ، ملقياً عن نفسه هذا العبء الذى كانت تضطلع به في سبيل الله ،

وفى سبيل الفصحى الكريمة لغة القرآن الكريم ، وفى سبيل البيان الرفيع اللهجة ، العلى النغمة ، النبيل المعنى والقصد والأداء . وإننا لنشعر بالألم يشيع فى أحناء الصدر أن رزئت دولة الأدب والبيان العربى هذه الرزيئة بفقد علم خفاق من أعلامها لم يطل به عهد الجهاد فى سبيلها ، ونكسته يد القدر قبل أن يؤدى رسالته العالية ، وإن هى إلا الرسالة التى تنتظرها الروح العربية الناشطة من عقال الخنوع والاستعباد ، والنهضة الاسلامية الطالعة اليوم من كل فج وواد ؛ بل هى الرسالة التى تتحرق الانسانية كلها شوقاً إلى سلسلها العذب وخمرتها العلوية الخالدة ؛ فلقد كان الرافعى الراحل كياناً أدبياً شامخ السمك رفعته يد العناية فى هذا الجيل ليبث فيه عبق الفصاحة العربية التى أسنت فى آنية الزمن حتى كادت تستحيل على أسلات الأقلام الناشئة المتأدبة فى هـذا العصر ريحاً غريبة ماتكاد تتبين فيها نفحة العروبة أو عذوبة الضاد ، أوشمائل الأجداد . ولقد كان الرافعى الراحل كذلك كلمة إسلامية جامعة تتلخص بالدعوة الصارمة الصارخة الصادقة إلى فضائل الإسلام فى زمن كادت تتقلص فيه عن هـذه الأرض الواسعة ظلال الفضيلة وخلائق الخير ومثل الانسانية العليا . ولقد كان ـ إلى هذا ـ فكراً تتدفق فى مطارحه أشعة الحقائق الاسلامية ، وقلباً يطفح بفيوض الايمان بعبقرية هذا الدين الحنيف ، فكان من أجل هـذا وذاك أنطق ناطق فى التعبير عن « الاشراق الإلاهى » الذى يطفو على وجه هذه الشريعة السمحة الغراء فى كل قضية من قضاياها التشريعية أو الروحية العبادية الخالصة ؛ وكان من أجل هذين أيضاً أبرع بارع فى تفسير « النبوة » على ما يريد الله منها فى بعث الرسل إلى الخلق وبث النبوات فى الكون ؛ وكان أقوم لسان فى حكاية « فلسفة الاسلام » على وجهها الذى ينبغى أن ندين الله به .

هذا هو الرافعى فى أدبه من الوجهه الروحية كما فهمته فى جملة ما قرأت له من كتب ومقالات ؛ ولا سيما هذه المقالات التى كان يكتبها « للرسالة » فى المناسبات الاسلامية التى جرت (الرسالة) على الاعتداد بها ، وعقد الفصول حولها ، وتخصيص بعض الأعداد لها ؛ ولكن المصيبة فى أمر الرجل أن الجيل الناشىء يتجافى عن أدبه ، وينقبض عنه انقباضه

يطرب للملائكة . ورجاء ان ينزل من مستواه قليلا حتى يفهمه الجمهور . وهو نقد لبق يعترف للرافعى بالسمو وإن كان يأخذ عليه غلوه فيه فى بعض الأحيان . . ولكن للرافعى عذره من قوة جناحيه وقد كانا يحملانه إلى جوه الذى فيه سر عبقرياته . .

ويخيل إلى أنه كان يكتب كما يتنفس . . كما عبر واصف بلاغة جعفر بن يحيى البرمكى ، وأنه لم يكن يقصد إلى الإغراب وإنما هو عفو الخاطر . على أن تلاحق السعى من قلمه فى « الرسالة » قد خدمه أجل خدمة ، وبه استطاع أن يخترع ذلك اللون الجديد من أدب البعث فيما يشبه القصة

حاولت أن أرثيه بكلمات شفافة طائرة تليق بروحه وبيانه فإنه لايليق به أن يرثى بهذا الكلام الجسمانى . . . وحاولت أن أصنع ريشا يرفعنى إلى السماء التى كان ياخذ من كواكبها نور قلمه ، فأعددت جو الذكرى وأحرقت البخور واستجمعت اطراف اللوثة ، ولكن كثافة النفس وخفوت الطبع قعدا بى فاجتزأت بوصف عجزى . . .

سأقرأه فى لباس التاريخ وروح الذكرى بعد أن مات وصار كلمة

وساضع أذنى على قبره دائما لأسمع نداء قلبه بهذه « العقدة الروحية » التى دعا إليها فى مقالته « فى وحى الروح » . .

وساجعل من شعلة روحه شمعتى . . .

ومن وحى قلمه غاسولا لحوبتى :

ومن أناشيده موسيقى همتى . .

جعل الله ميراثه للخلود ، وجهاده للنصر ، وروحه الى الجنة .

« بتزيل بغداد » عبد المنعم خلوف

الهازل اللاهي السادر فى هزله ولهوه ، إذا ما جئته بالأمر الجد ولوحت له بشأن من الحق . ولعل كثيراً من المؤمنين بعظمة الرافعى من هذه الناحية ما كانوا يستطيعون الجهر بايمانهم هذا خشية أن يرميهم جمهرة من الناس لها شأنها فى هذا الجيل بهذه الرمية التى اتخذت سبيلا إلى غل الأفكار عن البوح بما تفكر فيه ، هذه هى ما يسمونها « الرجعية » كما اتخذ غير هذه الكلمة سبيلا إلى ذلك عند جمهرة أخرى من الناس لها شأنها كذلك ، تلك هى ما يسميها الجامدون « هرطقة » أو « كفراً » ، أو « عصرية » ... ؛ والويل لنا من هاتين الفئتين ...

أما رأيى فى أدب الرافعى الذى فصل الموت بين عالمنا هذا وبينه فى عالم الآخرة — أما رأيى فى أدب الرجل من الوجهة الفنية ، فهو رأى كونته لنفسى منذ بدأت « الرسالة » تنشر له أدبه ، وقد كان قبل ذلك يشرف على الناس من كوة ضيقة ؛ وكان يتلهى فى الأدب تلهياً ، وكان يعبث فيه عبثاً ؛ وكانت الفصاحة اللفظية كل همه فيما ينشىء من مقالات أو كتب أدبية ، وكانت الصناعة الظاهرة والزينة والبهرج كل ما يطمح إليه . وقد كنت أرغب عنه يومئذ كما يرغب عنه اليوم كثير من ناشئة المتأدبين وقراء الأدب ؛ وقد انقطعت عن قراءته من أجل ذلك زمناً ؛ ثم قامت فى مصر مجلة « الرسالة » وأقبلنا عليها فى كل دار من ديار العروبة ، وكانت لى رغبة حينئذ فى أن أجدد عهدى بالرافعى ، وقد جاءت هذه المجلة الجديدة به إلى حظيرتها فأقبلت عليه بعد موقف قصير ترددت فيه بين عقل مستطلع ونفس تطلب اللذة السهلة الميسورة ؛ وما طال عهدى معه فى هذا الدور حتى أصلحت رأيى فيه ، وكونت لى هذا الرأى فى أدبه من الوجهة الفنية ... هذا الرأى الذى قلت فى مستهل الحديث أننى أشعر بالتياع حزاز فى قرارة النفس أن لم أجهر به إلا فى هذه الفرصة الأليمة إذ رحل الرجل إلى دار الخلود الحق

ورأيى هذا فى أدب الرافعى هو أن الفصاحة العربية الخالصة وإن كانت أولى مطامحه حين يجلس إلى كتابة المقالة ، ولكنه يأبى الإباء كله أن يضع جملته الفصيحة المشرقة قبل أن ينحت لها المعنى الدقيق العالى . وأشهد أنه ينحت هذا المعنى من قلب الحياة أحياناً ، وقد يستأسره بلباقة من أرحب أجواء الخيال الشعرى الصافى ؛ فاذا امتلك عنانه وصار قيد قريحته الخصبة كساه هذه الأجنحة الطاووسية الأخاذة ، ونفحه بريح طيبة من نفس العروبة الشذى الأفيح . وإذا كان فى بعض ما يقرأ له الناس ما يسمونه تعقيداً فليس هو — فى رأيى — بتعقيد ؛ ولكن هذا الجهاد الفكرى الذى يلقى نفسه فى غمراته كى يقتلع المعنى من قلب الحياة ، أو يستأسر الصورة الجميلة من جو الخيال الشعرى ، ثم هذا الترفع الذى يطلبه فى الكسوة اللفظية ، وهذه النفحة العذبة التى يقصدها فى مهابها من الأدب العربى القديم ؛ كل هذه مجتمعة تعمل فى إنتاجه هذا العمل الذى يخيل للقارىء البعيد عن روحه أنه تعقيد . ولو كان الصبر والجلد مما يسره الله لنا فى طبيعتنا واستعملنا هذا الصبر والجلد فى مرافقة الرافعى قليلا لأنست به أذواقنا الفنية وأرواحنا ، ولأفدنا من فصاحته العالية الشيء الثمين الغالى ؛ ولكن مصيبة الرجل فى هذا الجيل كما قلت لك هى مصيبة الجاد بالهازل ، مصيبة من يطلب الحق بمن لا يطلب إلا موارد اللهو الميسور الرخيص . ومن الحق أن نقول — آخر الأمر — إن ضآلة ما يحمل الرجل من ثقافة أبناء الجيل الحاضر هى الأخرى من جملة العوامل على ضيعته فيهم ، وذهابه عن دنياهم قبل أن يفيدوا من رسالته ما هم فى أشد الحاجة اليه . ولعل هذا الجهد العظيم الذى يجهده حين يكتب فيخيل لقرائه أنه يقصد إلى التعقيد — لعل هذا يرجع إلى قله بضاعته من الثقافة الحديثة . ولعل من آثار هذا الأمر ما نرى من عنايته فى إخراج الجمل قوية دون أن يعنى ، أو دون أن يستطيع العناية ، بوحدة المقالة وجعل الموضوع وحدة كاملة متماسكة .

وبعد فان الرافعى الراحل هو — فى عقيدتى — بنيان أدبى شامخ ينهار قبل أن يصل إلى أهدافه السامية . رحمه الله رحمة واسعة ، وعوض الأدب العربى خير العوض عن هذه الخسارة الجسيمة .

« النجف » مصطفى صادق الرافعى